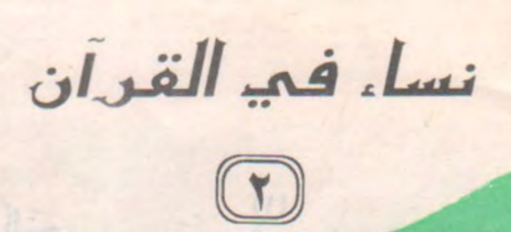


بلقيس

علي

اعده وعلق عليه

حامد حسين الفلاحي

بســـــــمِ اللهِ الرَّحمٰنِ الرَّحيـــــــمِ (١)

(وتفقَّدَ الطيرَ فقالَ ماليَ لاأرى الهدهدَ أم كانَ من الغائبين ● لأعذِّبَنَّهُ عذاباً شديداً أو لأذبحنَّهُ او ليأتِيَنّي بسلطان مبين ●) .

هاهو ذا الملك النبي سليمان في موكبه الفخم، يتفقد الطير فلايجد الهدهد، ونفهم هذا أنه هدهد خاص، معين في نوبته في هذا العرض العسكري، وليس هدهداً ما من تلك الألوف او الملايين التي تحويها الارض من أمة الهداهد، كما ندرك من افتقاد سليمان لهذا الهدهد سمة من سمات شخصيته: اليقظة والدقة والحزم، فهو لم يغفل عن غيبة جندي من هذا الحشر الفخم من الجن والانس والطير، وهو يسأل عنه في صيغة مرنة مترفعة جامعة: (مالي لا أرى الهدهدَ ام كانَ من الغائبين ●) ؟

ويتضح إنه غائب بغير إذن،وحينئذٍ يتعين ان يؤخذ الامر بالحزم كي لاتكون فوضى، فالأمر بعد سؤال الملك هذا لم يعد سراً،واذا لم يؤخذ بالحزم كان سابقة سيئة لبقية الجند،ومن ثم نجد سليمان الملك الحازم يتهدد الجندي الغائب المخالف:(لاعذبَنّه عذاباً شديداً او لأذبحنّه).

ولكن سليمان ليس ملكاً جباراً في الأرض، إنما هو نبي، وهو لم يسمع بعد حجة الهدهد الغائب، فلاينبغي ان يقضي في شأنه قضاءً نهائياً قبل ان يسمع منه، ويتبيّن عذره، ومن ثم تبرز سمة النبي العادل : (أوليأتِيَنّي بسلطان مبين ●).أي: حجة قوية توضح عذره وتنفي المؤاخذه عنه .

ويحضر الهدهد ومعه نبأ عظيم، بل مفاجأة ضخمة لسليمان ولنا نحن الذين نشهد احداث الرواية الآن !

(فمكثَ غيرَ بعيدٍ فقال أحطتُ بما لم تُحط بهِ وجئتك من سبأ بنبأٍ يقين ●)

انه يعرف حزم سليمان وشدته، لذلك فهو يبدأ حديثه بمفاجأة تطغى على موضوع غيبته وتضمن إصغاء الملك له، فأي ملك لايستمع وأحد رعاياه يقول له:

---

(١) الآيات ٢٠ - ٤٤ من سورة النمل .

(أحطتُ بما لم تُحط به) ؟ فإذا ضمن إصغاء الملك بعد هذه المفاجأة، أخذ في تفصيل النبأ اليقين الذي جاء به من سبأ -ومملكة سبأ تقع جنوب الجزيرة باليمن- فذكر أنه وجدهم تحكمهم إمرأة (أوتيت من كلٍّ شيء)، وهي كناية عن عظمة ملكها وثرائها وتوفر اسباب القوة والمتاع، (ولها عرشٌ عظيمٌ ●) اي سرير ملك فخم ضخم، يدلّ على الغِنى والترف وارتقاء الصناعة، وذكر أنه وجد الملكة وقومها (يَسجدونَ للشمس من دونِ اللّه) ، وهنا يعلل ضلال القوم بأن الشيطان زيّن لهم أعمالهم فأضلهم، فهم لايهتدون الى عبادة اللّه العليم الخبير (الذي يُخرِجُ الخَبْءَ في السموات والأرضِ)، والخبء: المخبوء إجمالاً سواء أكان هو مطر السماء ونبات الأرض، أم كان هو أسرار السموات والأرض، وهي كناية عن كل مخبوء وراء ستار الله في الكون العريض، (ويعلم ماتخفون وماتعلنون ●) ، وهي مقابلة للخبء في السموات والأرض بالخبء في أطواء النفس، ماظهر منه ومابطن . والهدهد الى هذه اللحظة يقف موقف المذنب الذي لم يقضِ الملك في أمره بعد، فهو يُلَمِّحُ في ختام النبأ الذي يقصه الى الله الملك القهار، رب الجميع، صاحب العرش العظيم، الذي لاتقاس إليه عروش البشر، ذلك كي يطامن[٢] الملك من عظمته الانسانية أمام هذه العظمة الالهية :

(اللّهُ لاإله الاّ هو ربُّ العرشِ العظيم ●) .

فيلمس قلب سليمان بهذه الإشارة الخفية ! ونجد أنفسنا أمام هدهد عجيب صاحب إدراك وذكاء وإيمان، وبراعة في عرض النبأ، ويقظة الى طبيعة موقفه، وتلميح ، وإيماء أريب، فهو يدرك أنّ هذه ملكة، وأنّ هؤلاء رعية، ويدرك أنهم يسجدون للشمس من دون الله، ويدرك أنّ السجود لايكون إلاّ لله، وأنه هو رب العرش العظيم، وماهكذا تدرك الهداهد، إنما هو هدهد خاص أوتي هذا الإدراك الخاص، على سبيل الخارقة التي تخالف المألوف .

ولايتسرع سليمان في تصديقه او تكذيبه، ولايستخفه النبأ العظيم الذي جاء به، إنما يأخذ في تجربته، للتأكد من صدقه، شأن النبي العادل والملك الحازم: (قالَ سننظر أصدقت أم كنتَ من الكاذبين ● إذهب بكتابي هذا فألقِه إليهم ثمّ تَولّ عنهم فانظر ماذا يَرجِعون ●) .

ولايعلن في هذا المشهد فحوى الكتاب، فيظل مافيه مغلقاً كالكتاب نفسه، حتى يفتح

---

(٢) يطامن : يقلل ويستهين .

هناك، وتفرض المفاجأة في موعدها المناسب . ويسدل الستار على هذا المشهد ليرفع فإذا الملكة وقد وصل اليها الكتاب، وهي تستشير الملأ من قومها في هذا الأمر الخطير :

(قالت يأيها الملأُ إني أُلقيَ اليَّ كتابٌ كريم ● إنه من سُليمانَ وإنَّهُ بسم اللهِ الرحمنِ الرحيمِ ● ألاَّ تعلوا عليَّ وأتوني مُسلمين ●) فهي تخبرهم أنه أُلقيَ إليها كتاب، هكذا بصيغة المجهول، مما يجعلنا نرجح أنها لم تعلم كيف ألقي اليها، ولاتعلم من ألقاه . وهي تصف الكتاب بأنه (كريم)، وهذا الوصف ربما خطر من خاتمه أو شكله، أو من محتوياته التي أعلنت عنها للملأ: (إنه من سليمانَ وإنه بسمِ اللهِ الرحمن الرحيم ● ألاَّ تعلوا عليَّ وأتوني مسلمين ●) .

وهي كانت لاتعبد الله، ولغة الكتاب التي يحكيها القرآن فيها استعلاء وحزم وجزم، وفحوى الكتاب في غاية البساطة والقوة، فهو مبدوء باسم الله الرحمن الرحيم، ومطلوب فيه أمر واحد: ألاَّ يستكبروا ويستعصوا، وأن يأتوا مستسلمين لله الذي يخاطبهم سليمان باسمه .

ألقت الملكة الى الملأ من قومها بفحوى الكتاب، ثم استأنفت الحديث تطلب مشورتهم، وتعلن إليهم أنها لن تقطع في الأمر إلاَّ بعد هذه المشورة، برضاهم وموافقتهم: (قالت: يأيها الملأُ أفتوني في أمري ماكنتُ قاطعة أمراً حتى تشهدون ●). وفي هذه الكلمات تبدو سمة الملكة الأريبة، أنها لاتريد مقاومة سليمان والوقوف بوجهه، ولكنها لاتقول ذلك صراحة، إنما تمهد له بذلك الوصف الذي وصفت به كتاب سليمان فقالت عنه إنه كتاب (كريم)، ثم تطلب الرأي بعد ذلك والمشورة ! وعلى عادة رجال الحاشية فقد أبدوا استعدادهم للعمل، ولكنهم فوَّضوا للملكة الرأي: (قالوا نحن أولو قوةٍ وأولو بأسٍ شديدٍ والأمرُ إليكِ فانظري ماذا تأمرين ●) وهنا تظهر شخصية (المرأة) من وراء شخصية (الملكة)، المرأة التي تكره الحروب والتدمير، والتي تنضي سلاح الحيلة والملاينة قبل أن تنضي سلاح القوة والمخاشنة: (قالت إنَّ الملوكَ إذا دخلوا قريةً أفسدوها وجعلوا أعزَّةَ أهلها أذِلَّةً وكذلكَ يفعلون ●وإني مرسلةٌ إليهم بهديّةٍ فناظرةٌ بِمَ يرجع المرسلون ●) .

فهي تعرف أنَّ طبيعة الملوك أنهم إذا دخلوا قرية (والقرية تطلق على المدينة الكبيرة)

أشاعوا فيها الفساد، وأباحوا ذِمارَها (٣)، وانتهكوا حرماتها، وحطموا القوة المدافعة عنها، وعلى رأسها رؤساوها، وجعلوهم أذلة لانهم عنصر المقاومة، وأنّ هذا دأبهم الذي يفعلونه، والهدية تلين القلب وتعلن الودّ، وقد تفلح في دفع القتال، وهي تجربة، فإن قبلها سليمان فهو إذن أمر الدنيا، ووسائل الدنيا إذن تجدي، وإن لم يقبلها فهو إذن أمر العقيدة الذي لايصرفه عنه مال ولاعرض من أعراض هذه الارض .

ويسدل الستار على المشهد، ليرفع، فإذا رسل الملكة وهديتهم أمام سليمان، واذا سليمان ينكر عليهم اتجاههم الى شرائه بالمال، أو تحويله عن دعوتهم الى الاسلام، ويعلن في قوة وإصرار تهديده ووعيده الأخير: (فلمّا جاءَ سليمانَ قالَ أتمدّونني بمالٍ فما آتاني اللّهُ خيرٌ مما آتاكم بَل أنتم بهديتكم تفرحون ● إرجع إليهم فلنأتِينّهم بجنودٍ لاقِبَلَ لهم بها ولنخرجنّهم منها أذلةً وهم صاغرون ●) .

وفي الردّ استهزاء بالمال، واستنكار للاتجاه إليه في مجال غير مجاله، مجال العقيدة والدعوة: (أتمدّونني بمالٍ) !؟ أتقدمون لي هذا العرض التافه الرخيص؟ (فمآ آتانيَ اللّهُ خيرٌ ممّا آتاكم)، لقد آتاني من المال خيراً مما لديكم، ولقد آتاني ماهو خير من المال على الاطلاق: العَلم والنبوّة، وتسخير الجن والطير، فما عاد شيء من عرض الأرض يفرحني، (بلْ أنتم بهديتكم تفرحون ●)، وتهشون لهذا النوع من القيم الرخيصة التي تعني أهل الأرض الذي لايتصلون بالله ولايتلقون هداياه !

ثم يتبع هذا الاستنكار بالتهديد: (إرجع إليهم) بالهدية وانتظروا المصير المرهوب: (فلنأتينّهم بجنودٍ لاقِبَلَ لهم بها)، جنود لم تسخر للبشر في أى مكان، ولا طاقة للملكة وقومها بها، (ولنُخرجَنّهم منها أذلةً وهم صاغرون ●)، مدحورون مهزومون.

ويسدل الستار على هذا المشهد العنيف، وينصرف الرسل، ثم يرفع فاذا الملكة قادمة، وسليمان يتذاكر مع جنوده في استحضار عرشها الذي خلفته في بلادها محروساً مصوناً :

(قالَ ياأيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها قبلَ أن يأتوني مسلمين ● قال عفريتٌ من الجنِّ أنا آتيكَ بهِ قبل أن تقومَ من مقامِكَ وإني عليه لقويٌّ أمين ● قالَ الذي عنده علمٌ من الكتابِ أنا

(٣) ذِمارها: الذمار : كل مايلزم حفظه وحمايته كالأهل الاموال .

آتيكَ بهِ قبل أن يرتدَّ إليكَ طرفك) . ترى مالذي قصد إليه سليمان من استحضار عرشها قبل مجيئها مسلمة مع قومها ؟ نرجح أن هذه وسيلة لعرض مظاهر القوة الخارقة التي تؤيده، لتؤثر في قلب الملكة وتقودها إلى الإيمان بالله والاذعان لدعوته .

وقد عرض عفريت من الجن أن يأتيه بالعرش قبل انقضاء جلسته هذه، وكان يجلس للحكم والقضاء من الصبح الى الظهر فيما يروى، فاستطول سليمان هذه الفترة واستبطأها -فيما يبدو- فإذا (الذي عنده علمٌ من الكتاب) يعرض أن يأتي به في غمضة قبل ان يرتدّ إليه طرفه، ولايذكر اسمه ولا الكتاب الذي عنده علم منه، إنما نفهم أنه رجل مؤمن على اتصال بالله، موهوب سراً من الله يستمّد منه القوة الكبرى التي لاتقف لها الحواجز والاباد، وهو أمر يشاهد أحياناً على أيدي بعض المتصلين بالله، ولم يكشف سرّه ولاتعليله لأنه خارج عن مألوف البشر في حياتهم العادية، وهذا أقصى مايقال في الدائرة المأمونة التي لاتخرج الى عالم الأساطير والخرافات !

ولقد جرى بعض المفسرين وراء قوله تعالى: (عنده علمٌ من الكتاب) فقال بعضهم: إنه التوراه، وقال آخرون: إنه كان يعرف اسم الله الاعظم، وقال بعضهم غير هذا وذاك، وليس فيما قيل تفسير ولاتعليل مستيقن، والأمر أيسر من هذا كله حين ننظر اليه بمنظار الواقع، فكم في هذا الكون من أسرار لانعلمها، وكم فيه من قوى لانستخدمها، وكم في النفس البشرية من أسرار وقوى لانهتدي إليها، فحيثما إراد الله هدي من يرى الى أحد هذه الأسرار، والى واحدة من هذه القوى جاءت الخارقة التي لاتقع في مألوف الحياة، وجرت بإذن الله وتدبيره وتسخيره، حيث لايملك من لم يردِ الله أن يجريها على يديه أن يجريها .

وهذا الذي عنده علم من الكتاب كانت نفسه مهيأة بسبب ماعنده من العلم ان تتصل ببعض الأسرار والقوى الكونية التي تتم بها تلك الخارقة، لأن ماعنده من علم الكتاب وصل قلبه بربه على نحو يهيئه للتلقي واستخدام ماوهبه الله من قوى وأسرار. (فلمّا رآه مستقراً عنده قالَ هذا من فضلِ ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكرُ لنفسهِ ومن كفرَ فإنّ ربي غنيٌّ كريم ●) .

لقد مست هذه المفاجأة الضخمة قلب سليمان -عليه السلام- وراعه أن يحقق الله له

مطالبه على هذا النحو المعجز، واستشعر أنّ النعمة -على هذا النحو- ابتلاء ضخم مخيف، يحتاج الى يقظة منه ليجتازه، ويحتاج الى عون من الله ليتقوّى عليه، ويحتاج الى معرفة النعمة والشعور بفضل المنعم، ليعرف الله منه هذا الشعور فيتولاه، والله غنيٌّ عن شكر الشاكرين، (ومن شكرَ فانّما يشكرُ لنفسه)، فينال من الله زيادة النعمة وحسن المعونة على اجتياز الابتلاء، ومن كفر فإنّ الله (غنيّ) عن الشكر (كريم) يعطي عن كرم لاعن ارتقاب للشكر على العطاء . وبعد هذه الانتفاضة أمام النعمة، والشعور بما وراءها من ابتلاء، يمضي سليمان -عليه والسلام- في تهيئة المفاجآت للملكة القادمة عما قليل: (قالَ نكّروا لها عرشها ننظر أتهتدي أم تكونُ من الذين لايهتدون ●) غيِّروا معالمه المميزة له لنعرف إن كانت فراستها وفطنتها تهتدي إليه بعد هذا التنكير، ام يلبس عليها الأمر فلا تعرفه بعد هذا التغيير؟ ولعل هذا كان اختباراً من سليمان لذكائها وتصرفها في أثناء مفاجأتها بعرشها . ثم ذا مشهد الملكة ساعة الحضور: (فلما جاءت قيلَ أهكذا عرشُكِ قالت كأنه هو).

إنها مفاجئة ضخمة لاتخطر للملكة على بال، فأين عرشها في مملكتها، وعليه أقفالها وحرسها، أين هو من بيت المقدس مقر ملك سليمان؟ وكيف جيء به؟ ومن ذا الذي جاء به؟ .

ولكن العرش عرشها رغم هذا التغيير والتنكير ! ترى هل تنفي أنه عرشها بناءً على تلك الملابسات؟ أم تراها تقول: إنه هو، بناءً على ماتراه فيه من إمارات(٤) ؟ وقد انتهت الى جواب ذكي أريب: (قالت كأنه هو) لاتنفي ولاتثبت، وتدلّ على فراسة وبديهة في مواجهة المفاجأة العجيبة !

(وأوتينا العلم من قَبلِها وكنّا مسلمين ●) . ثم يبين القرآن ماكان قد منعها قبل ذلك من الايمان بالله وصدها عن الاسلام عندما جاءها كتاب سليمان، فقد نشأت في قوم كافرين، فصدها عن عبادة الله عبادتها للشمس كما جاء في أول القصة :

(وصدَّها ماكانت تعبدُ من دون الله إنها كانت من قومٍ كافرين ●). وكان سليمان -عليه السلام- قد أعدّ للملكة مفاجأة أخرى لم يكشف السياق عنها بعد كما كشف عن المفاجأة الاولى قبل ذكر حضورها، وهذه طريقة اخرى في القصة غير الطريقة الاولى: (قيل لها ادخلي الصَّرحَ فلما رأته حسبته لُجّةً وكشفت عن ساقَيها قالَ إنه صرحٌ مُمَرَّدٌ من قوارير ●) .

(٤) إمارات: علامات .

لقد كانت المفاجأة قصراً من البلور، أقيمت أرضيته فوق الماء، وظهر كأنه لُجَّةٌ(٥)، فلما قيل لها: ادخلي الصرح، حسبت أنها ستخوض تلك اللّجةَ فكشفت عن ساقيها، فلما تمت المفاجأة كشف لها سليمان عن سرّ تلك اللجة: (قالَ إنه صرحٌ ممَرَّدٌ من قوارير ●) ! .

ووقفت الملكة مفجوءة مدهوشة أمام هذه العجائب التي تعجز البشر وتدلّ على أن الله قد سخر لسليمان قوى اكبر من طاقة البشر، فرجعت الى الله، وناجته معترفة بظلمها لنفسها فيما سلف من عبادة الشمس، معلنة إسلامها (مع سليمان) لا لسليمان، لكن (للّهِ ربِّ العالمين ●): (قالت ربِّ إني ظلمتُ نفسي وأسلمتُ مع سليمان للّهِ ربِّ العالمين ●) .

لقد اهتدى قلبها واستنار، فعرفت أنّ الاسلام ليس استسلاماً لأحد من خلقه، ولو كان سليمان النبي الملك صاحب هذه المعجزات، إنما الاسلام إسلام لله رب العالمين، ومصاحبة للمؤمنين به والداعين الى طريقه على سنة المساواة: (وأسلمت مع سليمان لله ربِّ العالمين ●). وسجل السياق القرآني هذه اللفتة وأبرزها للكشف عن طبيعة الايمان بالله، والإسلام له، فهي العزة التي ترفع المغلوبين الى صف الغالبين، بل التي يصبح فيها الغالب والمغلوب أخوين في الله رب العالمين .

ولقد كان كبراء قريش يستعصون على دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم إياهم الى الاسلام، وفي نفوسهم الكِبرُ أن ينقادوا الى محمد بن عبد الله فتكون له الرياسة عليهم والاستعلاء ، فها هي ذي إمرأة في التاريخ تعلمهم أنّ الاسلام لله يسوّي بين الداعي والمدعوين، بين القائد والتابعين، فإنما يسلمون مع رسول الله لله رب العالمين !

ان شاء الله تعالى ...

الرسالة القادمة ...

خويلة بنتُ ثَعلبة رضي الله عنها

(٦) لُجة: الماء الكثير على الارض .

نساء في القرآن



اعدّه وعلق عليه

حامد حسين الفلاحي

بسم الله الرحمن الرحيم

(قد سَمِعَ اللّهُ قولَ التي تجادلُكَ في زوجِها وتشتكي الى اللّهِ واللّهُ يسمع تحاوُركما إنَّ اللّهَ سميعٌ بَصير ●)[1].

كان الرجل في الجاهلية يغضب لأمر من امرأته فيقول لها: (أنتِ عليَّ كظهر أمي)، فتحرم عليه ولاتطلق منه، وتبقى هكذا، لاهي حِلٌّ له فتقوم بينهما الصلات الزوجية، ولاهي مطلقة منه فتجد لها زوجاً آخر، وكان هذا طرفاً من العَنَتِ الذي تلاقيه المرأة في الجاهلية .

فلما كان الإسلام وقعت هذه الحادثة التي تشير إليها هذه الآيات، ولم يكن قد شُرِّعَ حكم للظهار[2]، ذكر الأمام أحمد رحمه الله فيما يرويه عن (خويلة بنت ثعلبة) أنها قالت: فيَّ واللهِ وفي (أوس بن الصامت)[3] أنزل الله صدر سورة المجادلة، كنت عنده وكان شيخاً كبيراً قد ساء خلقه، فدخل عليَّ يوماً فراجعته بشيء فغضب فقال: أنتِ عليَّ كظهر أمي، ثم خرج فجلس في نادي قومه ساعة ثم دخل عليَّ فاذا هو يريدني عن نفسي فقلت: كلا، والذي نفس خويلة بيده لاتخلص إليَّ وقد قلتَ ماقلتَ حتى يحكم الله ورسوله فينا بحكمه، فواثبني فامتنعت منه فغلبته بما تغلب به المرأة الشيخ الضعيف فألقيته عني، ثم خرجت الى بعض جاراتي فاستعرت منها ثياباً، ثم خرجت حتى جئت رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلست بين يديه فذكرت له مالقيت منه وجعلت اشكو إليه ماألقى من سوء خلقه، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (ياخُويلَةُ إبنُ عَمِّك شيخٌ كَبيرٌ فاتقي اللّهَ فيه) .

فوالله مابرحت حتى انزل فيَّ قرآن، فتغشى رسول الله صلى الله عليه سلم ماكان

---

(١) المجادلة ١ . ومعنى (وتشتكي الى الله): أي تشكو الى الله فراقها لزوجها، ووحدتها، وفاقتها، وحاجة أطفالها الى أبيهم .

(٢) أي قول الرجل لزوجته: أنت عليَّ كظهر أمي .

(٣) زوجها، وهو أخو عبادة بن الصامت رضي الله عنه .

يتغشاه، ثم سري عنه، فقال لي: (ياخويلةُ قد أنزلَ اللهُ فيكِ وفي صاحبكِ قرآناً) ! ثم قرأ عليَّ :(قد سَمِعَ اللهُ قولَ التي تجادلُكَ في زوجِها وتشتكي الى اللهِ واللهُ يسمعُ تحاوركما إنَّ اللهَ سَميعٌ بصير ●)، الى قوله تعالى: (وللكافرين عذابٌ أليم ●)، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مُريهِ فليُعتِق رقبةً) .

فقلت: يارسول الله ماعنده مايعتق .

قال: (فليَصُم شهرين متتابعين) .

فقلت: والله إنه لشيخ ماله من صيام .

قال: (فليطعم ستينَ مسكيناً وسقاً[٤] من تمر) .

فقلت: والله يارسول الله ماذاك عنده !

قال : (فإنّا سَنعينُهُ بعَرقٍ من تمرٍ) .

فقلت: يارسول الله وأنا سأعينه بعرق آخر .

قال: (قد أصبتِ وأحسنتِ فاذهبي فتصدقي به عنه، ثم استوصي بابن عَمِّكِ خيراً). قالت: ففعلت[٥] .

فهذا هو الشأن الذي سمع الله مادار فيه من حوار بين رسول الله صلى الله عليه وسلم والمرأة التي جاءت تجادله في زوجها، وهذا هو الشأن الذي انزل الله فيه حكمه من فوق سبع سموات ليعطي هذه المرأة حقها ويريح بالها وبال زوجها، ويرسم للمسلمين الطريق في مثل هذه المشكلة العائلية اليومية ! .

وهذا هو الشأن الذي تفتتح به سورة من سور القرآن: كتاب الله الخالد، الذي تتجاوب جنبات الوجود بكل كلمة من كلماته وهي تتنزل من الملأ الاعلى، تفتتح بمثل هذا الاعلان : (قد سَمِعَ اللهُ قولَ التي تجادلُكَ في زوجها) .

فاذا الله حاضر هذا الشأن الفردي لأمرأة من عامة المسلمين، لايشغله عن سماعه تدبيره

(٤) لوسق: وحدة كيل قديمة .
(٥) رواه ابو داود في كتاب الطلاق من سننه .

لملكوت السموات والأرض، ولايشغله عن الحكم فيه شأن من شؤون السموات والأرض ! .

وإنه لأمر،

إنه لأمر أن يقع مثل هذا الحادث العجيب، وأن تشعر جماعة من الناس أنّ الله هكذا معها، حاضر شؤونها، جليلها وصغيرها، مَعنيٌ بمشكلاتها اليومية، مستجيب لأزماتها العادية، وهو الله الكبير المتعال، العظيم الجليل، القهار المتكبر، الذي له ملك السموات والأرض، وهو الغنيّ الحميد ! تقول عائشة رضي الله عنها :

(الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المُجادلةُ خولة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم في جانب البيت، ماأسمع ماتقول، فأنزل الله عزّ وجلّ: (قد سَمِعَ اللهُ قولَ التي تُجادِلُكَ في زوجِها وتشتكي الى الله)[٦].

وفي رواية خولة -او خويلة للتصغير والتدليل- للحادث، وتصرفها هي فيه، وذهابها الى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومجادلتها له، ونزول القرآن بالحكم، في هذا كله صورة من حياة تلك الجماعة الفريدة في تلك الفترة العجيبة، وشعورها بتلك الصلة المباشرة: وانتظارها التوجيه من السماء في كل شأن من شؤونها، واستجابة السماء لهذا الانتظار، الذي يجعل الجماعة كلها (عيالَ الله)، هو يرعاها وهي تتطلع إليه تطلع الطفل الصغير لأبيه وراعيه !

وننظر في رواية الحادث في النص القرآني فنجد عناصر التأثير والايحاء والتربية والتوجيه تسير جنباً الى جنب مع الحكم وتتخلله وتعقب عليه، كما هو أسلوب القرآن الفريد : (قد سَمِعَ اللهُ قولَ التي تجادلكَ في زوجها وتشتكي الى الله واللهُ يسمعُ تحاورَكُما إنّ اللهَ سميع بصير ●) .

---

(٦) أخرجه البخاري والنسائي ، وفي تفسير النسفي ان خولة قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن لي صبية صغاراً إن ضممتهم إليه ضاعوا وإن ضممتهم إليّ جاعوا) فقال لها صلى الله عليه وسلم: (ماعندي في أمرك شيء) ولم يكن قد نزل في الظهار وحي .

وهو مطلع ذو إيقاع عجيب، إنكما لم تكونا وحدكما، لقد كان الله معكما، وكان يسمع لكما، لقد سمع قول المرأة، سمعها تجادلك في زوجها وتشتكي الى الله، وعلم القصة كلها، وهو يعلم تحاوركما وماكان فيه، إنّه الله سميع بصير، يسمع ويرى ، وهذا شأنه وهذه صورة منه في الحادث الذي كان الله ثالثكما فيه ... وكلها إيقاعات ولمسات تهزّ القلوب !

ثم يقرر أصل القضية وحقيقة الوضع فيها : (الذين يُظاهرون منكم من نسائهم ماهنّ أمهاتُهم إن أمّهاتِهَم إلاّ اللاتي ولَدنَهُم وانهم ليقولون منكراً من القولِ وزوراً، وإنّ اللهَ لَعَفُوٌّ غفور●)(٧).

فهو علاج للقضية من أساسها، إن هذا الظهار قائم على غير أصل، فالزوجة ليست أمّاً حتى تكون محرمة كالأم، فالأم هي التي ولدت، ولايمكن أن تستحيل الزوجة أمّاً بكلمة تقال، إنها كلمة منكرة، ينكرها الواقع، وكلمة مزوّرة ينكرها الحق، والأمور في الحياة يجب ان تقوم على الحق الواقع، في وضوح وتحديد، فلا تختلط ذلك الاختلاط، ولاتضطرب هذا الاضطراب، (وإنّ اللهَ لعَفُوٌّ غفور●) فيما سلف من هذه الأمور . وبعد تقرير أصل القضية على هذا النحو المحدد الواضح يجيء الحكم القضائي في الموضوع : (والذين يُظاهرون من نسائهم ثمّ يعودونَ لما قالوا فتحرير رَقَبَةٍ من قبلِ أن يتماسّا ذلكم توعظون بهِ واللهُ بما تعملون خبير ●)(٨).

وقد جعل الله العتق في كفارات متنوعة وسيلة من وسائل التحرير للرقاب التي أوقعها نظام الحروب في الرق الى أجل، ينتهي بوسائل شتى هذه واحدة منها، وهناك أقوال كثيرة في معنى (ثمّ يعودون لما قالوا) نختار منها أنهم يعودون الى الوطء الذي حرّموه على أنفسهم بالظهار، فهذا أقرب مايناسب السياق، فتحرير رقبة من قبل العودة الى حله، ثمّ التعقيب:

(ذلكم توعظون به) ،

فالكفارة مُذكِّرٌ وواعظ بعدم العودة الى الظهار، الذي لايقوم على حق ولامعروف .

---

(٧) المجادلة ٢ .

(٨) المجادلة ٣ .

(والله بما تعملون خبير ●) ، خبير بحقيقته، وخبير بوقوعه، وخبير بنيتكم فيه .

وهذا التعقيب يجيء قبل إتمام الحكم لايقاظ القلوب، وتربية النفوس، وتنبيهها الى قيام الله على الأمر بخبرته وعلمه بظاهره وخافيه، ثم يتابع بيان الحكم فيه: (فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعينِ من قبلِ أن يتماسا فمن لم يستطع[٩] فاطعام ستينَ مسكيناً) ،

ثم التعقيب للبيان والتوجيه : (ذلك لتؤمنوا بالله ورسولِه) وهم مؤمنون، ولكن هذا البيان وهذه الكفارات ومافيها من ربط أحوالهم بأمر الله وقضائه، ذلك مما يحقق الايمان ويربط به الحياة ويجعل له سلطاناً بارزاً في واقع الحياة،

(وتلك حدود الله) أقامها ليقف الناس عندها لايتعدونها، وهو يغضب على من لايرعاها ولا يتحرج دونها،

(وللكافرين عذاب اليم ●) بتعديهم وتحديهم وعدم ايمانهم وعدم وقوفهم عند حدود الله كالمؤمنين .

ونحن هنا مع احداث السيرة في المجتمع المدني، مع الجماعة المسلمة الناشئة، حيث تربى وتقوّم، وتُعَدُّ للنهوض بدورها العالمي، بل بدورها الكوني، الذي قدّره الله لها في دورة هذا الكون ومقدراته، وهو دور ضخم يبدأ من إنشاء تصور جديد كامل شامل لهذه الحياة في نفوس هذه الجماعة، وإقامة حياة واقعية على أساس هذا التصور، ثم تحمله هذه الجماعة الى العالم كله لتنشئ للبشرية حياة إنسانية قائمة على أساس هذا التصور كذلك، وهو دور ضخم يقتضي إعداداً كاملاً .

ولقد اقتضت تربية النفوس وإعدادهاللدور الكوني الكبير المقدّر لها في الأرض جهوداً ضخمة وصبراً طويلاً وعلاجاً بطيئاً في صغار الامور وفي كبارها ، كانت حركة بناء هائلة هذه التي قام با الاسلام، وقام بها رسول الاسلام صلى الله عليه وسلم، بناء النفوس التي تنهض

(٩) اي لم يستطع الصيام لكبر او مرض لايرجى شفاؤه، فعليه إطعام ستين مسكيناً: أي إشباعهم يوماً من غالب قوت أهل البلد .

بناء المجتمع الاسلامي والدولة الاسلامية، وتقوم على منهج الله، تفهمه وتحققه، وتنقله، الي أطراف الارض في صورة حية متحركة، لا في صحائف ، وكلمات .

وهنا نشهد صورة موحية من رعاية الله تعالى للجماعة الناشئة وهو يصنعها على عينه، ويربيها بمنهجه، ويشعرها برعايته، ويبني في ضميرها الشعور الحي بوجوده -سبحانه- معها في أخصّ خصائصها وأصغر شؤونها وأخفى طواياها ، وضمها الى لوائه وظله، وتربية اخلاقها وعاداتها وتقاليدها تربية تليق بالجماعة التي تنضوي الى كنف الله وتنتسب إليه، وتؤلف حزبه في الارض، وترفع لواءه لتعرف به في الأرض جميعاً .

إنها صورة من صور هذه الفترة الفريدة في تاريخ البشرية، فترة اتصال السماء بالأرض في صورة مباشرة محسومة، ومشاركتها في الحياة اليومية لجماعة من الناس مشاركة ظاهرة:

(قد سمعَ اللهُ قولَ التي تجادلكَ في زوجها وتشتكي الى الله) فنشهد السماء تتدخل في شأن يومي لأسرة صغيرة فقيرة مغمورة لتقرر حكم الله في قضيتها ، وقد سمع -سبحانه- المرأة وهي تحاور رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها ، ولم تكد تسمعها عائشة رضي الله عنها وهي قريبة منها ! .

وهي صورة تملأ القلب بوجود الله وقربه وعطفه رعايته .

ان شاء الله تعالى ....

الرسالـــة القادمــة ....

زينب بنت جحش

رضي الله عنها

نساء في القرآن

هذه هي الحلقة الاولى من (**المرأة في ظلال القرآن**)،
استعرضنا فيها حياة النسوة اللائي ورد ذكرهنّ في القرآن الكريم، وكما
جاء في التفسير القيّم(**في ظلال القرآن**)
وعسى الله ان يوفقنا لإعداد الحلقة الثانية من هذه السلسلة
والتى سنعرض فيها
كل ما جاء في شأن النسوة في القرآن الكريم من العبادات والمعاملات.

اقرأ في هذه الحلقة:-

(١) **أم موسى** عليهما السلام ... **إمرأة ابراهيم** عليهما السلام

(٢) **بلقيس** عليها السلام ... **خويلة** رضي الله عنها

(٣) **زينب بنت جحش** رضي الله عنها

(٤) **مريم** عليها السلام

(٥) **عائشة** رضي الله عنها

(٦) **امرأة العزيز**

موافقة وزارة الاعلام ٣٣ في ٢٦/١/١٩٩٤

مطبعة النواعير رمادي